



مركز شؤون المرأة - غزة
Women's Affairs Center - Gaza

في قلب خولة وجعٌ تعجز الكلمات عن وصفه، فهي تعاني من إعاقة بصرية كلية منذ طفولتها



"كنت بحاجة دائمة لمن يساعدني ويحمل عني الأمتعة أو مساعدتي، ولكن لم يكن هناك أحد للأسف. كنت أشعر بأن الجميع مثقل بوضعي، لكنهم لا يظهرون ذلك أمامي. أما عن الفراش، فلم أملك شيئاً، فكنت أنام على أرضية الصف ووسادتي عبارة عن كومة من الملابس."

كيفية البصر وبصيرة القلب

في قلب خولة (29 عامًا) وجعٌ تعجز الكلمات عن وصفه، فهي تعاني من إعاقة بصرية كلية منذ طفولتها، وتعيش برفقة عائلتها في حي الشجاعية شرقي مدينة غزة، حيث يشترك بعض أفراد العائلة أيضًا في المعاناة ذاتها. وجاءت الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة منذ أكتوبر/تشرين الأول 2023 لتثقل أوجاعها، إذ لم تجلب لها سوى مزيد من الألم والخوف منذ اللحظة الأولى لانفجار القصف العنيف.

تعيش خولة مع والدها البالغ من العمر سبعين عامًا ووالدتها البالغة تسعة وستين عامًا. ولها ثلاث شقيقات متزوجات وخمسة إخوة، تعاني اثنتان من شقيقتها من إعاقة بصرية، وبرغم زواجهما مازالت معاناتهما قائمة: إذ تعيش إحداهن داخل غزة مع أسرته، بينما تقيم الأخرى خارج القطاع ولم تتمكن من العودة إلى مصر بعد زيارتها الأخيرة قبيل اندلاع الحرب على غزة.

مع بداية الحرب، واجهت عائلة خولة أولى جولات نزوحها، خاصة وأنهم يسكنون في منطقة خطيرة بالقرب من الحدود مع الاحتلال الإسرائيلي. كانت وجهتهم الأولى منزل ابنتهم المتروجة في حي الشجاعية، في مكان أبعد عن الحدود وأقل خطرًا. أقامت العائلة هناك أسبوعًا، قبل أن يأمرهم الاحتلال الإسرائيلي بالإخلاء بسبب استهداف المنزل المجاور.

نزحت عائلة خولة للمرة الثانية في الثالث عشر من أكتوبر 2023، في الساعة الخامسة صباحًا، من منزل ابنتهم في حي الشجاعية إلى إحدى مدارس تل الهوا بالقرب من مستشفى القدس جنوب مدينة غزة. لم يدم نزوحهم طويلًا، إذ لم يمكثوا في المدرسة أكثر من ساعتين، بعد أن ألقي جيش الاحتلال الإسرائيلي عليهم مناشير تطالبهم بالإخلاء والتوجه إلى جنوب وادي غزة باعتباره "منطقة آمنة"، رغم أنه لا يوجد مكان آمن فعليًا في قطاع غزة.

تقول خولة: "نزحنا أنا وعائلتي إلى مدرسة تابعة للأونروا في دير البلح وسط قطاع غزة. لتبدأ رحلتي الأصعب كوني أعاني من إعاقة بصرية كاملة. واجهت صعوبة كبيرة في التأقلم داخل المدرسة، إذ لم يكن معي أحد يرافقني، خصوصًا عند الذهاب لقضاء الحاجة؛ فالحمام لم يكن مخصصًا للنساء فقط، بل كان مختلطًا بسبب كثرة عدد النازحين، مما جعلني أشعر بإحراج شديد، فلا أعلم إن كان من دخل المرحاض قد انتهى أم لا، وأبقي أنتظر لفترة طويلة. كما كان التنقل داخل المدرسة صعبًا جدًا، إذ كانت ساحة المدرسة ممتلئة بخيام النازحين والأرض مليئة بالمياه، فكنت بحاجة للمشحي بدقة وحذر شديد لتجنب السقوط. شعرت دومًا أنني بحاجة ماسة لشخص مبصر لمساعدتي".

تشير خولة إلى أن غرفة الصف لم تكن مخصصة لعائلتها وحدها، بل كانت مقسمة إلى نصفين مع عائلة أخرى. وتضيف: "كنت بحاجة دائمة لمن يساعدني ويحمل عني الأمتعة أو يعينني، ولكن لم يكن هناك أحد للأسف. كنت أشعر بأن الجميع مثقل بوضعي، لكنهم لا يظهرون ذلك أمامي. أما عن الفراش، فلم أملك شيئًا، فكنت أنام على أرضية الصف ووسادتي عبارة عن كومة من الملابس. شعرت بالألم شديدة حتى شهر ديسمبر 2023م، حين قامت إحدى الجمعيات بتسليم بطانية واحدة لكل فرد، فنقوم بفرشها على الأرض للنوم. استمر هذا الحال حتى يوليو 2024، عندما سلمتنا جمعية أخرى فرشيتين، وأصبحنا ننام عليهما".

كانت خولة تعاني بشكل خاص من مهمة غسل الملابس، فحاجتها للمياه كانت أقل من حاجتها لشخص مبصر يساعدها في تعبئة دلاء المياه ونقلها إلى غرفة الصف لغسلها. وتضيف خولة: "لم يكن هناك من يساعدني، وكنت أشعر بالحياء من طلب المساعدة من أحد، إلى أن رزقت بصديقة نازحة شعرت وكأنها عيناها التي أبصر بهما رغم انطفائهما في ظلمة الدنيا. قامت بخدمتي على أكمل وجه هي وأولادها، وكانت سندي ورفيقتي، وأكثر من أخت بالنسبة لي. في زمن لم أجد فيه أحدًا يحبني ويقدرني مثلها، كانت هي من أعادت لي شعور الأمان والدعم".

دخلت الهدنة حيز التنفيذ في التاسع عشر من يناير 2025، لكن النازحون عادوا إلى شمال قطاع غزة في 27 يناير. ومن شدة فرحة خولة بعودتها إلى منزلها ومكانها الذي تشعر فيه بالراحة، عادت فورًا مشيًا على الأقدام مع ابنة أخيها (11 عامًا). استغرق رجوعهما من دير البلح إلى مدينة غزة (13 ساعة، من الساعة الثامنة صباحًا وحتى الساعة التاسعة مساءً).

تقول خولة: "كانت ابنة أخي تصف لي المشاهد والدمار من حولنا، وما يكتب على اللافتات أثناء المسير عن مفقودين وشهداء. شعرت بأن المعاناة مستمرة مع كل خطوة، ومع كل نفس، ومع كل حرف، ومع كل صرخة. كان مشهد عودة الغزيين أشبه بيوم الحشر، يوم يجمع بين الفرح والحزن والألم والصدمة في الوقت ذاته".

تضيف خولة: "عبارة غزة ترحب بكم ملأت قلبي بشعور لا يمكن وصفه بالكلمات، حتى عجزت عن الكلام. بكينا أنا وابنة أخي كثيرًا، وشعرنا وكأننا نعود من بلد بعيد جدًا. كان شعورًا جميلًا وصعبًا في الوقت ذاته: فالإرهاق والألم قد استولى على جسدينا، والطريق كان طويلًا مليئًا بالحفر وجبال الرمل وحشود من الناس، أما الشمس فكانت حارقة. كل ذلك كان صعبًا جدًا عليّ كفتاة كفيفة، إلا أنني واصلت المسير حتى وصلت إلى منزلي المدمر جزئيًا في حي الشجاعية شرق مدينة غزة".

انتهت الهدنة الإنسانية في الثامنة عشر من مارس 2025، وعادت الحرب أشد من السابق. اقتحم جيش الاحتلال الإسرائيلي منطقة سكن خولة مجددًا، مما أجبر العائلة على النزوح غرب مدينة غزة إلى بيت يتكون من غرفة واحدة فقط، تضم (15) شخصًا، في أحد العمارات بمنطقة الجوزات غرب مدينة غزة. تحت القصف والنيران. كانت هذه العودة لأصعب أيام حياتها، حيث عادت مرارة النزوح من جديد مع غياب الخصوصية والازدحام واليزعاج الكبير.

لم تستسلم خولة يومًا رغم استمرار المعاناة، ولم تنه عزيمتها. فرغم كونها فتاة كفيفة، أعادت تعريف معنى القوة، ليس كقدرة على الانتصار، بل كإصرار على البقاء إنسانة وسط هذا الخراب. لم تر الركام يومًا، لكنها سمعت صرخاته في وجوه الأطفال، وشممت رائحة الفمق في هواء المخيمات. في كل يوم يمر، تتعلم خولة كيف تصنع من العتمة نورًا في داخلها، ومن النزوح طريقًا نحو معنى جديد للحياة، فتستمر بالدعاء والاستغاثة طلبًا لوقف حرب الإبادة والخلص.